مفهوم (العلاقة) ومنطق (الجامع في كل) عند البلاغيين

د. المهدي إبراهيم الغويل*

جرى البلاغيون على أن يثبتوا للمشبه حكما من أحكام المشبه به، فإذا لم يكن بهذه الصفة أو كان بينه وبين المشبه به بعد فإن ذلك مما يعيب التشبيه ويضع من قيمته البلاغية كما يقول عبد العزيز عتيق ويتمثل على ذلك بقول أبي تمام:

لا تسقني ماء الملام فإنني   صب قد استعذبت ماء بكائي

فالشاعر هنا جعل للملام ماء، وهذا كما يرى تشبيه بعيد وسبب بعده أن الماء مستلذ والملام مستكره فحصل بينهما المخالفة والبعد من هذه الجهة. وقول المرار:

وخال على الخدين يبدو كأنه   سنا البدر في دجناء باد دجونها

فجاء الحكم كما يقرر عتيق انطلاقاً من أن الخدود بيض والخال أسود، لكن الشاعر شبه الخال بضوء البدر والخدود بالليلة، فكان التشبيه هنا بعيداً ومناقضاً للعادة ولهذا فهو عنده تشبيه رديء(1).

والحكم بمنطق الجامع بين الأشياء أمر تقرره طبيعة البيئة الثقافية ومتغيراتها، في الربط بين الأشياء وإدراك ماهيات العلاقة بينها. والناس يتفاوتون في

---

* الجامعة الأسمرية.

1- انظر: في البلاغة العربية، البيان علم ، د. عبد العزيز عتيق، ط ، دار النهضة العربية، بيروت، ص130.

مقدار ودرجة إدراكهم للعلاقة والجهة الجامعة بين الأشياء وذلك بحسب ملابستهم لها وتعاملهم معها وفي ذلك يقول البهاء السبكي: ورب شيئين يجتمعان في خيال زيد دون خيال عمرو لملابسته لهما دون غيره، أو جريان ذكرهما في مجلسه دون غيرهما، وربما كان بين الأمرين جامع خيالي بالنسبة إلى قوم كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: 17-20].

فإن أكثر انتفاعهم بالإبل وانتفاعهم بالرعي الناشئ عن المطر النازل من السماء، المقتضي لتقلب وجوههم إليها، ولابد لهم من مأوى وحصن ، فكثر في ذهنهم على الترتيب المذكور، بخلاف الحاضر (أي ساكن المدينة) فإنه إذا تلا الآية قبل تأمل هذه الأمور ربما وسوس إليه الشيطان فظن أن هذا الوصل معيب[2].

والبحث في قضية التشريك الإعرابي جعل البلاغيين يبحثون مسألة العطف في إطار الجامع بين المعطوفين ومبدأ الاتصال بين معاني المفردات والجمل، ومن هذا المنطلق لم يستحسن البلاغيون صيغة العطف عندما جمع الشاعر بين مرارة النوى وكرم أبي الحسنين في البيت السادس من القصيدة التي يمدح فيها أبو عام أبا الحسن محمد بن الهيثم حيث يقول[3]:

أسقى طلولهم أجش هزيم ... وغدت عليهم نظرة ونعيم
جادت معاهدهم بعهد سحابة ... ما عهدها عند الديار ذميم
سفه الفراق عليك يوم تحملوا ... وبما أراه وهو عنك حليم
ظلمتك ظالمة البريء ظلوم ... والظلم من ذي قدرة مذموم
وعمت هواك عفا الغداة كما عفا ... عنها طلال بالنوى ورسوم
لا والذي هو عالم أن النوى ... صبر وأن أبا الحسين كريم

2- انظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، البهاء السبكي، ضمن كتاب شروح تلخيص المفتاح، ط ، عيسى الحلبي، القاهرة، 1937 ، ص116 - 117.
3- انظر: الإيضاح للخطيب القزويني ، ط المطبعة الجمالية، القاهرة، ط2، ص247.

مازلت عن سنن الوداد ولا غدت   نفسي على إلف سواك تحوم

فرأى البلاغيون أنه لا توجد علاقة بين (أن النوى صبر) و (أن أبا الحسين كريم) وقالوا أنه عطف بدون مناسبة سواء جعل عطف مفرد على مفرد كما هو الظاهر أو عطف جملة على جملة باعتبار وقوعه موقع مفعولي عالم لأن وجود الجامع شرط في عطف المفرد وعطف الجملة على السواء[4].

لقد كان البحث عن الجهة الجامعة في بنية العطف سبباً في ربط بلاغته بوجود علاقة منطقية بين المتعاطفات وإذا ما فقدت تلك العلاقة عد العطف معيباً ولا مسوغ له. ومن هنا نجدهم يلتمسون الجامع أو الرابط في كل صيغة بحسب ما تم التعارف عليه في الجمع بين المتقاربات على المستوى المنطقي الواضح وبحسب النسق التعبيري المطرد دون البحث عن سر العلاقة في إطار إنشاء بنية كلية جديدة.

ويمكن لأجل توضيح ذلك أن نطبق على قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: 23].

فنلاحظ تعلق البحث البلاغي في بنية العطف بفكرة الجامع بين المتعاطفين فأديرت المسألة هنا على فضيلة الرتبة والشرف باقتران طاعة الوالدين بعبادة الله وحده.

ولكن التعميق الفني يوقفنا على بعض أسرار العطف في هذه الآية التي أنشأت فيها صيغة العطف سياقاً خاصاً وعلاقة جديدة تتصل -كما يقول صاحب كتاب بلاغة العطف في القرآن الكريم- بتقرير حقيقة التوحيد وتكريم الوالدين بوضعهما في سياق عطفي ذي سياق خاص كون كلا جديداً تحركت فيه المتعاطفات بتراسلها الخاص وتكوين مجال بنيوي ذي إيحاء جديد، فإذا كان من المقرر عند بعض علماء الكلام أن بداية الحاجة إلى الإيمان وضرورة معرفة الله تنشأ من ضرورة شكر النعم فإننا نستطيع أن نقول: إن من يمرن روحياً على شكر

4- انظر: بلاغة العطف في القرآن الكريم، دراسة أسلوبية، د. عفت الشرقاوي، ط دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص121.

نعمة والديه منذ الصغر يكون أقدر على شكر المنعم الأكبر وقت التكليف[5].

إن الكلمة في سياقها الجديد تكتسب دلالـة يسـهم هـذا السـياق في الإيحـاء بها، وعلى هذا فالبحث عن الجهة الجامعة قد يقلل من هذه القيمـة ويحشـر القيمـة البلاغية في زاوية ضيقة تقوم على التقييم المسبق والجزئي للعبارة بحيث لا تلتفـت إلى ما ينشأ من علاقات داخل البنية التركيبية.

ومما يورده البلاغيون شاهداً على ما يسمى (الجامع الوهمي) قول الشاعر:

ثلاثـــة تشـــرق الـــدنيا ببهجتهـــا   شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

وحيث يشترط وجود الجامع فهم يقولون إنه جامع وهمي جمع بـين ثلاثـة أشياء (الشمس – القمر – أبو إسحاق) فالوهم هو الذي أبرز هـذه المتعاطفـات في سلك التقارب والتماثـل مثـل تـوهم وجـود لـون البيـاض ولـون صـفرة ومـا شـابه ذلك[6].

وفي هذا السياق يتحدث الدكتور عفت الشرقاوي في كتابه عن فكرة تراسـل ماهيات المعاني بين المتعاطفات حيث افتتحـت الصـيغة هنـا سـياقاً جديـداً؛ فكـل كلمة من المتعاطفات هنا لها خارج إطار السياق ارتباطها الذاتي المختزن في ذهـن السامع فهناك إيحاء الضياء والبهاء ونشاط الحيـاة، ووضـوح المواجهـة في « شمـس الضحى » وهنـاك إيحـاء الرقـة والسـمو والسـكون والتفـرد في لفـظ القمـر، ولكـن الشاعر صنع سياقاً جديداً منهما مع اسم الممدوح له إيحاؤه المتجدد بتجدد شـعور الناس ببهجة الشمس وعلو القمر[7].

إن ولع البلاغـيين بمنطـق الجـامع في كـل أدى بهـم إلى إغفـال الكـثير مـن العلاقات بين التراكيب، إذ ترجع هـذه العلاقـات أحيانـاً إلى مـا تنطـوي عليـه مـن صلات نفسـية لـدى المبـدع، وتحـول هـذا الحكـم إلى إسـراف في المظهريـة دون

5- انظر: بلاغة العطف في القرآن الكريم، ص205.

6- انظر: مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، لأبي يعقـوب المغربـي ضـمن كتـاب شـروح التلخيص للقزويني، ط عيسى الحلبي، 1937، ص97.

7- بلاغة العطف في القرآن الكريم، ص172 - 173.

الغوص إلى ما وراء الجهة الجامعة التي قد لا تعني سوى الضم والرصف[8].

لقد كانت قضية الشعر الحديث هي قضية السياق المبتكر الذي ينشئه الشاعر عن طريق الجمع بين مفردات تعد في الظاهر متباعدة أو متنافرة -أحياناً- ولكنها في سياقها الجديد تؤلف تراسلاً بين ماهياتها في بناء كلى ذي إيحاء موضوعي جديد[9].

إن فكرة التوجه نحو الجهة الجامعة يفترض أن التشابه قائم موجود قبل وجود التعبير اللغوي بحكم وجود العلاقة سابقاً، ولكن الأساس الذي تقوم عليه العملية الإبداعية يعتمد على عملية إنشاء العلاقة وإحداث نوع من التقارب بين الأشياء في سلك جديد، وهذا الإحداث والإبداع هو الذي قام عليه الشعر الحديث. ولو سلمنا بالفكرة الأولى لترتب على ذلك وجود تشابه مسبق بين الليل والموج[10].

وهذه العلاقة الجديدة هي ما أحدثه الشاعر عندما شبه الليل بالموج فقال:

وليل كموج البحر أرخى سدوله   علي بأنواع الهموم ليبتلي

فليس ثمت علاقة بين الليل وموج البحر ولكن الشاعر أقام تشابهاً من نوع خاص وظف فيه خاصية التتابع وعدم الانقطاع في الموج ليعبر بهذه الصورة عن طبيعة شعوره بطول الليل.

ومن هذا فإنه ليس من حق الناقد إذا لم يستطع للوهلة الأولى إدراك الجهة الجامعة -التي قد تكون خيالية أو نفسية أو غير ذلك- أن يحكم برداءة الصورة التشبيهية.

ومن المتعارف عليه عند أغلب النقاد والبلاغيين أن التشبيه إذا قام على

8- انظر: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، د. رجاء عيد، ط : دار المعارف ، الإسكندرية، ط 2 ، ص266.

9- انظر: بلاغة العطف في القرآن الكريم، ص176.

10- انظر: في هذا المعنى نظرية المعنى في النقد العربي، د. مصطفى ناصف، ط: دار الأندلس، بيروت، ص86.

الجمع بين عناصر شديدة التقارب كان تشبيهاً عادياً مبتذلاً يصبح تشبيهاً مبتكراً مستطرفاً إذا قام على الجمع بين عناصر متباعدة[11] يقول ابن رشيد: وإنما حسن التشبيه أن يقرب بين البعيدين حتى تصير بينهما مناسبة واشتراك[12].

وفي هذا يؤكد عبد القاهر الجرجاني على جمالية الصورة التشبيهية التي تقوم على التأليف بين الأشياء المتباعدة لما لهذه الصورة من إحداث للدهشة في نفس المتلقي يقول: « إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب، وكانت النفوس لها أطرف وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب »[13].

ومما تقرر لدى البلاغيين أن العلاقة محكومة بالجانب العقلاني وسطوته في تفسيراتهم المتقوقعة في دائرة القياس المنطقي وما يقضيه من بحث عن المعنى المشترك داخل التركيب.

ولعل قراءة في باب الاستعارة توقفنا على جانب كبير في هذه المسألة، فالاستعارة يكاد ينحصر دورها لديهم في إيضاح الخفي ويعتمدون في إجرائها قرب المأخذ وفقاً لافتراضات ذهنية محضة.

ففي قوله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ [الإسراء: 24] يعمل البلاغيون ذهنهم في إيجاد تفسير لطريقة الانتقال الاستعماري؛ فالمراد أمر الولد بالذل لوالديه رحمة فاستعير للذل أولاً (جانب) ثم للجانب جناح ويقدرون الاستعارة القريبة بـ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾ أي اخفض جانبك ذلا. فالإجراء هنا يقوم على استعارة لفظ الجناح لما فيه من المعاني التي لا تحصل من خفض الجانب؛ لأنه من يميل جانبه إلى جهة السفل أو أدنى ميل صدق عليه أنه خفض

11- انظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، د. جابر عصفور، ط المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1992، ص185.

12- العمدة في صناعة الشعر ونقده، لابن رشيف القيرابي، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، ط المكتبة التجارية، القاهرة، 1955، ص1.

13- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ت. هـ. مطبعة وزارة المعارف، استانبول 1954، ص116.

جانبه والمراد خفض يلصق الجانب بالأرض ولا يحصل ذلك إلا بذكر الجناح للطائر(14).

ونجد في العصر الحديث من يدرس الاستفادة برؤية حداثية تقوم على التفاعل الدلالي وبناء العلاقة الجديدة بين الأشياء عندما يتم تناسي التشبيه والجهة الجامعة ويطوى ذكر المستعار له ويصير الكلام خلواً عنه صالحاً لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه ويرى أن الشاهر لا يجول في خاطره التشبيه كما في قول أبي تمام:

ويصعد حتى يظَنَّ الجهول بأنَّ له حاجة في السماء

فيعلق على البيت بأن المفلقين السحرة يتناسون التشبيه ويضربون عن توهمه صفحاً(15).

وقد انتبه الفخر الرازي إلى ما وقع فيه البلاغيون من معضلة الجدل البلاغي حول الجامع والتشبيه، حيث يؤكد أن المعول عليه في القيمة ليس الأصل التشبيهي، بل الأساس هو تناسي هذا التشبيه والادعاء بأن الصورة المجازية أصلية يقول: إنهم قد يستعيرون الوصف المحسوس للشيء المعقول ويجعلون كأن تلك الصفة ثابتة لذلك الشيء في الحقيقة، وكأن الاستعارة لم توجد أصلاً ويعلق على بيت أبي تمام السابق فيقول:

العلو لزيادة الرجل على غيره في الفضل والقدر والسلطان ثم وضعهم الكلام موضع من يذكر علواً مكانياً ويرى أن أبا تمام قصد تناسي التشبيه وإنكاره وجعل الصعود في السماء صعوداً مكانياً ولولا ذلك لم يكن لهذا الكلام وجه(16).

والاتكاء على تقليدية العلاقة الجامعة بين الأشياء هو ما جعل الآمدي في موازنته بين الطائيين يرفض كثيراً من استعارات أبي تمام ويعقد لها باباً سماه: بعيد

14- انظر: الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ط. البابي الحلبي، ط3 ، 1951، ص148 ، وانظر فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، ص377 - 378.

15- انظر: الكشاف، للزمخشري، ط : دار الاستقامة، القاهرة، الطبعة الثانية، ج1 ، ص39.

16- نهاية الإيجاز ، فخر الدين الرازي، ط: مطبعة الآداب، القاهرة، 1317هـ ، ص92.

الاستعارات في شعر أبي تمام، فالآمدي -وهو من أنصار عمود الشعر التي يعتمد على قرب المأخذ في الاستعارة- ينطلق من فكرة عدم قبول ما أحدثه أبو تمام من علاقات جديدة في البنية الاستعارية؛ ولذا نجده يبدأ في مطلق استشهاده على ما ذهب إليه من أمثلة قبيح الاستعارات بقول أبي تمام:

يا دهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

فيعلق الآمدي بعد ذكر ثلاثة وعشرين بيتاً من هذا القبيل، وأشباه هذا مما إذا تتبعته في شعره وجدته. فجعل كما ترى مع غثاثة هذه الألفاظ للدهر أخدعا ويداً تقطع من الزند وكأنه يصرع ويحل ويشرق بالكرام ويبتسم.. والزمان أبلق وجعل للمدح يداً وجعل المعروف مسلماً تارة ومرتداً تارة أخرى والحادث وغداً.. وجعل لصروف النوى قداً وللأمن فرشاً.. وجعل للأيام ظهراً يركب والليالي كأنها عوارك والزمان كأنه صب عليه ماء والفرس كأنه ابن الزمان الأبلق وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد عن الصواب(17).

والآمدي بهذا يعمد إلى تكريس جهده في الدفاع عن الفكرة التقليدية المتوارثة عن العقلية العربية القديمة التي تقوم على استعارة المعنى لما ليس له إذا كان بقاربه أو يدانيه أو يشبهه في بعض أحواله أو كان سبباً من أسبابه.

وفي هذا ينقل الحاتمي في الرسالة الموضحة ما دار من حوار بينه وبين المتنبي حول قوله:

شرف ينطح النجوم بروقيه وعز يقلقل الأجيالا

حيث قال: أخطأت في قولك مع ضعف لفظك وسخف عبارتك وأفسدت البيت لأنك جعلت لشرف الرجل قرنين، فقال المتنبي: وما يدريك؟ قال ألم تقل ينطح النجوم بروقيه، والروقان القرنان؟ فقال المتنبي: أجل إنها استعارة. قال الحاتمي: لعمري إنها وإن كانت استعارة ولكنها استعارة خبيثة جارية في المعاضلة التي نفاها عمر بن الخطاب رضوان الله عليه عن زهير وذكر اجتنابه إياها. فقال

17- الموازنة بين أبي تمام والبحتري، للآمدي، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، ط. المكتبة العلمية، بيروت، ص233 - 234.

كان لا يعاضل بين الكلمتين، أي يداخل الكلمة في الكلمة إذا لم تكن إحداهما من جنس الأخرى ولا كانت مناسبة لها ولا مشتقة منها[18].

وحسبنا دليلاً على تهافت الاعتماد على مفهوم العلاقة والجهة الجامعة ذلك التخبط الواضح لدى البلاغيين عندما يغيب عنهم الأصل التشبيهي فيحيلون الأمر إلى التخيل والتوهم حتى يتحقق لديهم وجود وجه للمشابهة يقدر من خلال كذا الذهن في إيجاده وفقاً لحكم المنطق ومما يمكن أن نعده أنموذجاً في هذا قول لبيد.

وغداة ريح قد كشفت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

حيث يقف البلاغيون أمام مشكلة حقيقية تمثلت في الأصل التشبيهي الذي يصعب تحديده وفقاً لما اشترطه القياس المنطقي في تناسب الأجزاء وتدانيها فيضطرهم الأمر إلى تمحك لوازم التشبيه. يقول الفخر الرازي في تعليله للأصل التشبيهي متأثراً في ذلك بمذهبه في التأويل: والشمال في تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالحيوان المتصرف إلا أن تصرف الحيوان إنما يكون باليد أكثر الأمر فتكون اليد كالآلة التي بها تكتمل القدرة على التصرف. ولما كان الغرض إثبات وصف المتصرفية وكذلك بما لا يكمل إلا عند ثبوت اليد لا جرم أثبت اليد للريح تحقيقاً للغرض[19].

فالشبه الذي تحدث عنه البلاغيون هنا حاصل بموجب الحكم العقلي «فالشبه في نحو: (رأيت أسداً) تريد رجلاً شجاعاً وصف موجود في الشيء الذي استعرت اسمه وأما قولك: إذ أصبحت بيد الشمال زمامها. فالشبه الذي استعرت له واليد ليست توصف بالشبه ولكنه صفة تكسبها اليد صاحبها وتحصل له بها وهي التصرف على وجه مخصوص»[20].

18- انظر: الرسالة الموضحة، للحاتمي، ت. محمد يوسف نجم، ط. دار صادر، بيروت، 1965، ص90 - 91.

19- نهاية الإيجاز، ص14.

20- أسرار البلاغة، ص38.

فلو دققنا في كلام الجرجاني لظهر لنا حقيقة الجدل حول قضية الجامع العقلي؛ فالشاعر في البيت السابق لم يرد قطعاً أن يجعل الشمال كاليد ومشبهة باليد كما يجعل الرجل كالأسد ومشبهاً بالأسد، ولكنه أراد أن يجعل الشمال كذي اليد من الأحياء فالمعنى «ليس فيه شيء يتوهم أن يكون قد شبه بالزمام، وإنما المعنى على أنه شبه الشمال في تصريفها الغذاة على طبيعتها بالإنسان يكون زمام البعير في يده فهو يصرفه على إرادته، ولما أراد ذلك جعل للشمال يداً وعلى الغذاة زماماً»[21]

فلا سبيل أمام الجرجاني إلا الارتهان إلى الأصل التشبيهي الذي ضرب بأطنابه في عقول البلاغيين ، حتى لو كان ذلك على حساب التذوق الفني الذي لا يمكن إخضاعه لكل هذه المماحكات المنطقية.

ولهذا فالجرجاني في نهاية المطاف يجعل الاحتكام إلى الأصل التشبيهي هو الفيصل في الموضوع فيقول: «وإنما غايتك التي لا تتطلع وراءها أن تقول: أراد أن يثبت للشمال في الغذاة تصرفاً كتصرف الإنسان في الشيء يقلبه واستعار لها اليد حتى يبالغ في تحقيق التشبيه»[22].

والجرجاني في كل ذلك لا تخفى عليه مسألة التمييز بين المشار إليه المفقود الذي تجرى عليه كلمة (اليد) وما يقدر في النفس أو الوهم وفي هذا دليل واضح على صعوبة إرساء التناظر الصريح بين طرفي المشابهة في مثل هذه الحالة، فإذا تعذر الوقوع على وجه التوازي الظاهر بين الطرفين وجب الخروج إلى التخيل والوهم والتقدير في النفس. وآلة الوصول إلى هذا المكون (المفقود) كامنة في العمل التأويلي ومن ثم اعتبر الجرجاني أن (حكم طبيعة الشمال) نظير مواز في التقدير لذكر اليد في بيت لبيد[23].

21- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ط. دار المنار ، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1372هـ ص412.

22- أسرار البلاغة، ص35.

23- انظر: تأويلية الصورة المبنية على المشابهة، هشام القلفاط، ط: منشورات كلية الآداب بمنوبة، تونس، 2008، ص68 - 69.

ومن أجل ذلك عد أنصار عمود الشعر شعر أبي تمام وبخاصة استعاراته من قبيل الرديء والمستكره لأنه واجه قراء عصره بما لم يألفوه أو يتعودوا عليه لدرجة أن يواجهه أحدهم بقوله لم لا تقول ما يفهم فيرد عليه ساخراً: ولم لا يفهم ما يقال ، وأن يأتيه آخر بإناء طالباً منه أن يسكب له فيه من ماء الملام مشيراً إلى قوله الذي سبق ذكره.

لا تسقني ماء الملام فإنني صب قد استعذبت ماء بكائي

والعناء الذي لاقاه أبو تمام وأضرابه من المحدثين راجع إلى أنه واجه قراء لم يألفوا هذه اللغة ، بل لم يتعودوا على تشبيه عيون المرأة بغير المهاة ، وجيدها بغير الرئم والرجل الشجاع بغير الأسد، ولذا فقد كانت لغة الشاعر صادمة لأذواقهم وخارجة عن آفاق توقعاتهم فحاكموه وفقاً لما تعارفوا عليه واحتذوه من القديم فيما يتعلق بوضوح الصورة التشبيهية وتقارب الحدود بين طرفيها.

إن مما يمكن استنتاجه مما سبق أن البلاغيين في قضية البحث عن الجهة الجامعة والعلاقة المبررة للجمع بين الملفوظات اللسانية لم ينظروا إلى مسألة غاية في الأهمية وهي مسألة إمكانات اللغة وطاقاتها المتجددة بتجدد السياق؛ إذ لابد لإدراك البعد الجمالي للغة من البحث في الارتباطات التي تنشأ بين الألفاظ والتراكيب، وقد أكد ريتشاردز ذلك عندما قال أن معنى الكلمة هو مجموعة من الإمكانيات تغذي وتتغذى بإمكانيات أخرى، وهذا يعود بنا إلى فكرة المعنى بوصفه علاقة متبادلة بين مجموعة من الإمكانيات لا بين حدود[24].

كما يمكننا في ضوء هذا أن ندرك جلياً أن السر الكامن وراء عدم قبول القراء القدامى والبلاغيين للعلاقات الجديدة في اللغة القائمة على كسر الحدود بين الأشياء وتفتيت الدلالة المعجمية داخل النسق الاستعاري هو نزعة الاتجاه إلى تأكيد فكرة الإبلاغ وجعلها معياراً أساساً في تقييم الأسلوب إضافة إلى العناية بمبدأ المحافظة على الحدود المتمايزة بين الأشياء.

24- انظر: مشكلة المعنى في النقد الحديث، د. مصطفى ناصف، ط : مكتبة الشباب القاهرة، ص132.

إن الفكرة التي غابت عن أذهان أغلب البلاغيين قديماً هي فكرة ما يحصل من تفاعل بين الدلالات وما يرتبه نشاط السياق من معاني جديدة، بل لقد غفلوا عن الإيحاء الذي قد تأتي به عبارة في علاقاتها الجديدة مع العبارات الأخرى « فهناك الإيحاء الأدبي للكلمة أو الصورة المستعارة وهناك الإيحاء الرمزي والمادي والنفسي »[25].

وإن مما أعده ثمرة من ثمرات هذا الجهد المتواضع في هذه الوريقات أن بلاغة النص لا يمكن قصرها في تفريعات البلاغيين في الفصول التي عقدوها في فروع المعاني والبيان والبديع دون أن ندرس كل هذه الفصول في إطار بلاغة النسق التركيبي ونشاط السياق.

إن السمة الإبداعية للانساق تكمن في توفير طاقة الاختلاف؛ فأساس الاستعارة مثلاً الجمع بين مختلفين ويمكن أن نترجم ذلك في مثل: (خالد أساس) سواء عُد من قبيل الاستعارة -فالحدود المصطلحية لا تعنينا في إطار القيمة الإبداعية- أو من قبيل التشبيه فهذا المثال يقوم على الاختلاف؛ إذ ينبنى أصلاً على إثبات المنقى لأن أصل العملية قبل صوغ العبارة (ليس خالد أسد).

كما إن عملية الجمع بين العناصر المختلفة أو المتشابهة في أنساق الإسناد أو العطف أو التشبيه أو الاستعارة تنطوي وفقاً للمنظور الحداثي على بعد إنشاء ماهيات جديدة وليس إدراك الماهيات. ولهذا يمكن الخلوص إلى أن العناصر البلاغية يمكن درسها في هذا الإطار دون هذه الحدود والقواعد الجافة التي كبلت البلاغة بحدود المنطق العقلي التي لا يمكن أن يخضع لها الإبداع، فالتشبيه يخضع للتقسيم والتبويب وكذا الاستعارة منها التصريحية ومنها المكنية ، والتصريحية إذا كانت تبعية يصح في قرينتها أن تكون استعارة مكنية.

ومما يمكن أن نختم هذه الوريقات وندلل به على أن المرجع الأساس في إدراك القيمة الفنية هو العمل على تمثل ما ينشأ من دلالات بسبب العلاقات

25- نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، د. تامر سلوم، ط: دار الحوار اللاذقية، سوريا، الطبعة الأولى، 1983، ص309.

الجديدة داخل السياق ليس البحث عن الجامع في كل والجهر الجامعة بين الأشياء قوله تعالى عن زكريا عليه السلام تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾ [مريم: 4].

فبدلاً من البحث والجدل حول علاقة المشابهة التي تتطلبها الاستعارة بمفهومها التقليدي يمكننا أن نقارب العلاقة الجديدة الناشئة عن لفظه (اشتعل) والتقائها بطريق الإسناد مع كلمة (الرأس) وما يوحى به ذلك بالنسبة لظهور الشيب لأنه لا وجود لأصل تشبيهي يمكن الرجوع في علاقة ظهور الشيب باشتعال النار وماهية الاشتعال شكلت مع الشيب تراسلاً خاصاً تداعت بموجبه دلالات جديدة تفاعلت في سياق إسنادي ذي طابع اختلافي يقوم على كسر النمط والخروج على أصل المواضعة لا على تكريس مبدأ المشابهة التي ركض وراءه البلاغيون حقباً.